٢ـ الإعجاز في الآية الواحدة

شكلت الآية القرآنية المبحث الثاني من الإعجاز القرآني، بما اتسمت به من مقومات تعبيرية خاصة، ألقت بظلالها على السياق الدلالي مجليةً آفاق التنزيل الحكيم بأدوات الصياغة: اللغوية، والصرفية، والبلاغية.

أ ـ خصائص لغوية:

من السمات اللغوية التي نلحظها على صعيد الآية الواحدة دقة أدائها لمقام السياق وروحه، ويتجلى ذلك في الآيات الدالة على: **إصابة المعنى:** ونتبين هذه الخصوصية اللغوية من خلال المقارنة بين سياقين متشابهين؛ السياق الأول ورد على لسان زكريا عليه السلام عندما تضرع إلى ربه ليهبه ذريةً صالحة، ثم جاءت الاستجابة مع وجود الموانع لهذا الإنجاب من كبر السن ووجود العقم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (آل عمران: ٤٠). ففي هذا السياق وردت لفظة «يفعل» ولم يقل «يخلق»؛ لأن الفعل هنا يناسب مقام وجود الزوج والزوجة، وإن كان وجود العقم والشيخوخة مانعا للإنجاب.

وجاء السياق الثاني على لسان التقية الصالحة «مريم بنت عمران»، عندما تعجبت من مجيء الولد، وهي ليست بذات زوج، ولم تكن ارتكبت الإثم: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ﴾ (آل عمران: ٤٧).

ففي هذا السياق وردت لفظة «يخلق» ولم يقل «يفعل»؛ لأن خلق عيسى عليه السلام هو خرق للناموس الكوني في سنن الإنجاب؛ هو إيجاد واختراع من غير سبب يؤدي إليه، فناسب المقام هنا استخدام لفظ «يخلق» دون «يفعل» وهذه الخصوصية اللغوية للآية القرآنية قد جسدت عظمة القدرة الإلهية في الإيجاد والخلق، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

ومن الآيات الأخرى التي نتلمس فيها دقة إصابة المعنى من خلال سياقين متشابهين ما نجده في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ١)، هذه الآية الكريمة أفصحت عن عمومية الرسالة المحمدية، وهذه العمومية نهضت بها لفظة «الناس» لتبرز ماهية هذه الرسالة، التي جاءت للبشر كافة لتكون خاتمة الرسالات السماوية، بخلاف الرسائل

الأخرى التي جاءت مقيدة بزمان محدد، ومكان معين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم: ٥) فلفظة «قومك» بيان لخصوصية رسالة موسى عليه السلام، وأنها مقيدة بقومه وزمانه فحسب.

ومن ثم تآزرت اللفظتان في سياقهما العام بطرح هذا المفهوم المعرفي لماهية الرسائل السماوية بإيجاز بالغ، ودقة متناهية قد يتطلب التنويه عنه بعبارات عدة. يقول أحمد مختار عمر: «وإذا كانت رسالة كل رسول محكومة بزمان معين، ومكان معين، وشعب معين، وكانت معجزة كل رسول تلائم هذه الغاية من ناحية، وترتبط بمكان نزولها وزمانه من ناحية أخرى فقد كانت رسالة محمد ﷺ شاملة لكافة الأمكنة، عامة لجميع الخلق، باقية ما بقيت السموات، والأرض...»[1].

ب ـ خصائص صرفية:

ونواكب بلاغة الإعجاز القرآني على صعيد الآية الواحدة من خلال سماتها الصرفية التي شكلت معلماً آخر من معالم الأسلوب المعجز الذي يفصح عن آفاق التنزيل الحكيم. ونلمس ذلك في:

---

(١) أحمد مختار عمر، قاموس القرآن الكريم (لغة القرآن)، الكويت: مؤسسة التقدم العلمي، ١٩٩٣م) ص٧.

١- **البعد الرمزي لصيغ الاشتقاق**: ونتأمل مؤدى هذا الاستخدام وطاقته التأثيرية من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ (هود: ١١٣)

هذه الآية تطرح سؤالاً فحواه: لماذا كان هذا العقاب مساً للنار لا دخولاً فيها؟!

ولدى إنعام النظر بالآية الكريمة تتجلى الإجابة من ثنايا تشكيل بعض الصيغ الصرفية؛ فنجد أن «ظلموا» فعل ماضٍ مسند لواو الجماعة، وصيغة «ظالم» اسم فاعل يفيد التحول والآية حذرت من الميل للظالمين؛ وهذا يعني أن صفة الظلم غير ملازمة لهم، وقد يتحولون عنها في قادمات أيامهم، بخلاف ما لو جاءت الكلمة على صيغة المبالغة «ظلمة» على وزن «فَعَلَة» التي تفيد الثبوت. فلم يقل: ولا تركنوا إلى الظلمة فتمسكم النار.

وهنا تتجلى عدالة الله سبحانه وتعالى بأن جعل الجزاء من جنس العمل، فيكون عقاب الميل اليسير إلى الذين ظلموا أنفسهم فترة من حياتهم بقدر فترة هذا الميل مساً للنار لا دخولاً فيها أو خلوداً بها. يقول الإمام البيضاوي في هذا

الصـــدد: «ولا تركنـــوا إلى الـــذين ظلمـــوا، ولا تميلـــوا إلـــيهم أدنـى ميـل، فـإن الركـون هـو الميـل اليسـير: كـالتزيي بـزيهم، وتعظـيم ذكـرهم، فتمسـكم النـار بركـونكم إلـيهم، وإذا كـان الركون إلى مـن وجـد منـه مـا يُسـمى ظلمـاً، كـذلك فمـا ظنـك بـالركون إلى الظـالمين، أي الموسـومين بـالظلم، ثـم الميـل إلـيهم كل الميل، ثم بالظلم نفسه، والانهماك فيه ؟!»[1].

وهكـذا جسـدت الآيـة بصـيغها الصـرفية قاعـدة فقهيـة يُرتكـز عليهـا في اسـتنباط الأحكـام الجزائيـة، بـأن يكـون الجـزاء مـن جنس العمل. والله أعلم.

٢ـ **التجسيد المعنـوي لصـيغ المبالغـة والتفضـيل**: ومـن هـذه الصـيغ الـتي نجـد لهـا بعـداً دلاليـاً متميـزاً مختـزلاً طاقـة تعبيريـة هائلـة، مـا ساقه التعبير القرآني في صيغتي: «محمد » و« أحمد».

وإذا استقرأنا الآيات التي ورد بها اسم الرسول الكريم محمد ﷺ، نجدها متضمنة هذين الاسمين: «محمـد» «أحمـد» وذلـك في قولـه تعـــــالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ (آل

(١) عبدالله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (بيروت: دار الجيل، د.ت.)، ص ٢٨٥.

عمران: ١٤٤) وقوله على لسان عيسى عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ (الصف: ٦). ولدى تأمل هاتين الصيغتين «محمد» «أحمد» من حيث بنيتهما اللغوية نجد أنهما مشتقتان من «الحمد» ومع ذلك فإن صيغة الاشتقاق لكل منهما روعي فيها بعداً دلالياً لم يراع في الأخرى؟ إذ نهضت بوظيفة متمايزة عنها! فصيغة «أحمد» جاءت على صيغة اسم التفضيل «أفعل» من اسم الفاعل «حامد» الذي وقع منه فعل الحمد فكان «حامد». أما « أحمد» فقد زاد في أداء الحمد عن «حامد» فكان «أحمد».

ويأتي اسم محمّد على صيغة «مفعّل» بزيادة التضعيف على صيغة اشتقاق اسم المفعول محمود من «حمد»، الذي وصف بالحمد فكان محموداً.

وعلى هذا فإن صيغة التضعيف التي اشتق منها اسم «محمّد» تحمل في ثناياها زيادة في معنى الحمد ــ لأن كل زيادة في المبنى دلالة على زيادة في المعنى ـ كما يُستشعر منها صفة ثبات هذا الحمد، ومن ثمّ فإن اسم «أحمد» قد

جسّد حمد الله مراراً؛ والحمد لا يتأتى إلا استشعاراً لفضل المنعم، وأداء حقوقه بالقلب واللسان والجوارح. بينما تضمن اسم «محمد» طاقة مكثفة من حمد الناس وثنائهم تحقيقاً لما وصفه به سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) فكأن الله سبحانه وتعالى قد جمع في اسمي «محمد وأحمد» صفتي: المجاهدة والاصطفاء، ومن ثمّ كانت هاتان الصفتان الينبوع الثّر الذي انبثقت عنه محصلة المعاني التي وصف بها الرسول الكريم؛ الصفات التي جسدت فيه قيم وفضائل القرآن، طبقاً لما وصفته به السيدة عائشة: «كان خلقه القرآن» أو بما وصفه به أصحابه: «كان قرآناً يمشي على الأرض».

جـ ـ خصائص بلاغية:

شكلت السمات البلاغية على صعيد الآية الواحدة مصدراً خصباً من مصادر التعبير القرآني، وبيان أثرها الدلالي في استلهام آفاق البيان المعجز، ومن هذه السمات ما نجده في:

١ـ **التوظيف الدلالي للإنشاء الطلبي**: جسدت هذه الصيغة على صعيد الآية الواحدة لوناً من وجوه الإعجاز القرآني؛ إذ شكلت

الآية الواحدة - على قِصَرها وإيجازها - منظومة لعدة ألوان بلاغية، صعّدت في النفس آفاق المعنى، وجلال الإعجاز ولنصغ لقوله تعالى حكايةً على لسان النملة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨).

بعد تأمل هذه الآية، ومجاوزة حالة الانبهار بهذه المخلوقة العجيبة التي تكاد تكون أصغر مخلوقات الله حجماً، وأضعفهم شأناً، كيف نصّبتْ من نفسها واعظة وحكيمة! بل إن حالة الانبهار بهذا الجانب تكاد تتضاءل عندما نعمق النظر بهذا التعبير الراقي الموجز الذي تضمن معنى الحذر والإشفاق، والإباء، والذكاء، واختزل في ثناياه عدة ألوان بلاغية تفوهت بها هذه المخلوقة العجيبة جملةً واحدة؛ فالنملة عندما قالت: «يا» نادتْ، «أيها» عيّنتْ، «ادخلوا» أمرت، «مساكنكم» نصّتْ «لا يحطمنّكم» حذّرتْ «سليمان» خصّتْ «جنودهُ» عمّمتْ، «وهم لا يشعرون» اعتذرتْ، فيا لها من نملة حصيفة! فهي قد نطقت بحق، وحكمت بعدل! وهذه البلاغة الأدائية على لسان

النملة جعلت بعض العلماء يعدون هذه الآية من عجائب القرآن[1].

ومن السمات البلاغية التي نتلمسها في الآية الواحدة ما نجده على صعيد:

٢ـ **ثنائية الأداء الوظيفي للاستفهام الإنكاري**: نهض الاستفهام الإنكاري بوظيفة معرفية مزدوجة، وظيفة الوعد والوعيد في آن واحد؛ هذه الوظيفة قد ألقت بظلالها المعنوية مُبصِّرة بنعم الله ونقمه في حياتين متباينتين؛ دار الفناء، ودار البقاء، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ١٣) ولدى تأمل المواضع التي وردت فيها هذه الآية نجدها قد ترددت في مواضع النعم، كما ترددت عند ذكر النقم. ومن نماذجها في مواضع النعم قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ (الرحمن: ١٠-١٢)

---

(١) جاء في تفسير ابن الجوزي عن قوله تعالى: {قالت نملة ...} «أي صاحت بصوت، فلما كان ذلك الصوت مفهوما عبر عنه بالقول، ولما نطق النمل كما ينطق بنو آدم أجرى مجرى الآدميين فقيل: «ادخلوا» وألهم الله تلك النملة معرفة سليمان معجزاً له»، ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (المكتب الإسلامي، د. ت.)، ١٦٢/٦.

هذا جانب من النعم التي صورتها سورة الرحمن، ثم كررت بعدها صيغة الاستفهام الإنكاري، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ولقد حسن التكرار تلافياً للجحود والإنكار، لاسيما وأن الاستفهام الإنكاري تقريري في مضمونه، ويتلقى الإجابة التلقائية الاعترافية من المخاطب نفسه؛ «إذ كلما ذكر الله نعمة وبَّخ وأنكر على من كذب بها»[1].

وكيف للإنسان أن ينكر هذه النعم العظمى وقوام حياته ومعاشه منها وعليها؟! فالأرض بسطها المنعم لعباده ليستقروا عليها، وينتفعوا بخيراتها، من شتى أنواع النباتات المختلفة الطعوم والألوان والروائح: يقول صاحب البحر المحيط: «فيها فاكهة: ضروب مما يتفكه به ... ونُكِر لفظها لأن الانتفاع بها دون الانتفاع بما يذكر بعدها، ثم ثنى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرتها، وهو التمر، لكثرة الانتفاع بها من: ليف، وسعف، وجريد، وجذوع، وجمار، وثمر، ثم أتى ثالثاً بالحب الذي هو قوام عيش الإنسان في أكثر الأقاليم، وهو البر والشعير، وكل ما له سنبل، ووصفه بقوله: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ تنبيهاً على إنعامه عليهم بما يقوتهم من الحب، ويقوت

(١) محمد محمود حجازي التفسير الواضح، ط ٦، (مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٩٧٥م، ٢١/١٢٧.

بهائمهم... وبدأ بالفاكهة، وختم بالمشموم، وبينهما النخل والحب، ليحصل ما به يُتفكه، وما به يتقوت، وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة...»[1].

وإلى جانب ذكر هذه النعم العديدة تسوق السورة نفسها ألواناً من صنوف النقم: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ (الرحمن: ٣٣)[2]، ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٥﴾ في هذه الآيات يتجه الخطاب القرآني إلى الثقلين: الإنس والجن، بصفة الأمر الذي يخرج من مراده الحقيقي إلى الأمر التعجيزي الذي لا يستطيعون حياله الفرار من قضاء الله وعقابه إلا بقوة وقهر، وأنى لهم ذلك؟! لن يكون لهم هذا الفرار

---

(١) أبو حيان النحوي، البحر المحيط (الرياض: مكتبة النصر الحديثة، د.ت) ٨/١٩.

(٢) هذه الآية فُهمت لدى بعض المثقفين بأن السلطان الذي جاء فيها يُراد به «سلطان العلم» وبخاصة بعد أن تمّ ارتياد الفضاء. وقد أغفل هؤلاء قراءة الآية في سياقها العام مما ينافي هذا الفهم. وقد فسر البيضاوي الآية من خلال سياقها فقال: « ... إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هاربين من الله، فارين من قضائه، فانفذوا أي فاخرجوا، «لا تنفذون» لا تقدرون على النفوذ «إلا بسلطان» إلا بقوة وقهر، وأنى ذلكم»، البيضاوي، أنوار التنزيل، ٨/١٩٠.

لما يتعقبهم ويرصدهم من العذاب؛ وأي عذاب؟! إنه صور من الهول والفزع فوق طاقة البشر! صور لا يستطيع خيال الإنسان تمثلها، فكيف بمعاينتها، ومعايشة أهوالها؟!

وبعد أن رسم التعبير القرآني هذه الصور لصنوف النقم وردت صيغة الاستفهام الإنكاري لتأكيدها: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بمعنى: عن أي من هذه النعم العديدة والجليلة تجحدون؟! وهنا ينهض استفهام آخر من أغوار النفس يقابل الاستفهام الأول قائلاً: ما هي هذه النعم التي نوهت عنها الآيات؟! إنها ليست سوى صنوف من ألوان العذاب!! ومن خلال هذين التساؤلين ينهض سؤال ثالث يستفسر عن الحكمة في ذكر هذه النقم، ثم تقريرها بأنها من ألوان النعم؟!

والإجابة على هذه التساؤلات تتجلى في أثر النظم القرآني على السياق الدلالي، بغية تعميق مقاصد التنزيل الحكيم! وذلك بتجسيد رحمة الله بعباده، ورأفته بهم، قبل أن ينالهم وبال أعمالهم، ليتاح لهم فرصة مراجعة النفس قبل فوات الأوان: فتبصيرنا بمآل أعمالنا في الحياة الدنيا لهي من أجل نعم المنعم علينا. وكما قالت العرب: من حَذّرك فقد بشّرك.

وفي هذا الصدد من ذكر آيات النقم وتوظيفها في مجال النعم، يقول الخطابي:... فإن قيل: إذا كان المعنى في تكرر قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تجديد ذكر النعم في هذه السورة، واقتضاء الشكر عليها، فما معنى قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ ثم تبعه قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وأي موضع نعمة ها هنا؟ وهو إنما يتوعدهم بلهب السعير، والدخان المستطير قيل: إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به، وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمه على ما وعد، وبشّر من ثوابه على طاعته، ليرغبوا فيها، ويحرصوا عليها، وإنما تُحقّق معرفة الشيء بأن يُعتبر بضده ليوقف على حده، والوعد والوعيد وإن تقابلا في ذواتيهما فإنهما متوازيان في موضع النعم بالتوقيف على مآل أمرهما، والإبانة على عواقب مصيرهما»[1].

٣ ـ **البعد الوظيفي للتذييل**: حقق هذا اللون البلاغي دوراً واضحاً في إعجاز النظم القرآني؛ تجلى في التناسق الدقيق بين دقة الحكم الشرعي والسياق الدلالي. أو بعبارة أخرى التلاحم والتناسق المعنوي بين صدر الآية وعجزها، بحيث لو ختمت الآية بصيغة أخرى من صيغ

(١) حمد إبراهيم الخطابي، إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، ط ٤، (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، القاهرة: دار المعارف، د.ت.) ص٣٥.

التذييل الأخرى لانتقَض الحكم بين الختام والاستهلال، وهذا ما يتضح في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٨).

ربما يلفت الانتباه في هذه الآية للوهلة الأولى ما طرحته من حكم القصاص لجريمة السرقة. وقد لا ننعم النظر ملياً في ختامها فيما لو جاءت على نحو آخر من التعقيب، مثل «والله غفور رحيم» أو «والله سميع عليم» غير أن دقة النظم بين البدء والختام تجعلنا في حالة إعجاب تستأثر بالفكر والوجدان.

ولعل خير من يطلعنا على دقة هذه الصياغة من كان في موضع هذا الإعجاب: يقول الأصمعي: «قرأت هذه الآية، وإلى جنبي أعرابي، فقلتُ: (والله غفور رحيم) سهواً، فقال: الأعرابي: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله! قال: أَعِدْ، فأعدتُ: والله عزيزٌ حكيم. فقاله: أصَبْتَ، كلام الله! فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا، عزَّ فحكم فقطع؛ ولو غفر ورحم لما قطع !!»[1].

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، ٢/٣٥٤.

٤ ـ **دور الإسناد الخبري**: شكل الإسناد الخبري ركيزة مرجعية على صعيد تنظيم المجتمع الإسلامي، مؤصلاً فقه المنهج الدعوي من خلال طرح طريقة الرسل في التدرج المرحلي لتبليغ الدعوة وفق استجابة المبلّغين.

ونتلمس هذا النهج في الآيات التي ساقت لنا قصة أهل القرية المكذبين لرسلهم – على طريقة أسلوب القرآن في إيراد القصص للعظة والعبرة ـ حيث تنهض كل آية بخطوة مرحلية في إطار المهمة الدعوية؟ قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ (يس: ١٣ـ١٤) وهذا التكذيب من المبلّغين اقتضى تأكيد المهمة الدعوية بمؤكد واحد، علها تلقى استجابة في نفوسهم؛ لأن الخبر الأول جاء غفلاً من التوكيد، لأنه مجرد إخبار لخالي الذهن منه، ومن ثم جاءت الآية الثانية تؤكد مهمة الرسل الدعوية بعد أن لاقت دعوتهم التشكيك فيها: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (يس: ١٤) بيد أن هذا التوكيد لم يجابه إلا بمزيد من الإعراض والتشكيك حتى بلغ مبلغ الإنكار: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (يس: ١٥).

وجريا على عادة الرسل في احتواء أقوامهم، وصبرهم على تكذيبهم، وعدم اليأس من هدايتهم فقد أعادوا الكرة عليهم أملاً في هدايتهم، فلجؤوا إلى تعزيز دعوتهم بمؤكدات أخرى علّها تضع حداً لإنكارهم، فجاءت الآية التالية تؤدي هذه الغاية بمؤكدات ثلاث: «إن التوكيد» «لام التوكيد» إلى جانب علم الله سبحانه الذي هو أقوى عوامل هذا التوكيد ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (يس: ١٦).

وهذا التدرج في مراحل عرض الخبر الدعوي الذي جسدته الآيات، وصنّفه علماء البلاغة بالطلبي، والابتدائي والإنكاري، وفق استجابة المتلقي قد أشار إليه صاحب التسهيل معللاً مقتضى عرض الآيات بين الإبلاغ والإنكار، فيقول: «قالوا إنا إليكم لمرسلون» إنما أكدوا الخبر هنا باللام؛ لأنه جواب المنكرين، بخلاف الموضع الأول فإنه مجرد إخبار»[1].

إلى جانب أن هذا التدرج في عرض الخبر قد جسد سُنَّةً من سنن الحياة البشرية في الإعراض والإنكار إزاء الهداية

(١) محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق محمد عبد المنعم يونس، إبراهيم عوض، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، د. ت.) ١٦١/٣.

والإرشاد، فضلاً عن طرحه للمنهج الراقي للتخاطب وأدب الحوار.

ومع صورة أخرى من صور التوكيد الخبري في إطار روعة النظم القرآني في الآية الواحدة نتلمس صورة أخرى من سنن الحياة البشرية إزاء الاستجابة الإيمانية، مما نجده في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ (البقرة: ١٢) وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ (البقرة: ١٣). هاتان الآيتان تمثلان فئة الضلال والنفاق إزاء الفئة الأولى فئة الجحود والنكران. الفئة الأولى تعلن الكفر بصريح القول، والفئة الثانية تبطن الكفر وتظهر الإيمان بزيف الكلام. ومن ثم جاء وصفهم الدقيق بما يجلوا خبايا نفوسهم بتعدد ألوان التوكيد فيهم للتنبيه على خطرهم وعظم فسادهم، فساقت الآية عدة مؤكدات هي «آلا» و«إن» والضمير المنفصل «هم» وتعريف الخبر في «المفسدون» و«السفهاء»، وينوه وهبة الزحيلي عن خصوصية هذا التنوع التوكيدي وأثره الاجتماعي: إن إفسادهم اقتضى هذا التنوع في التوكيد، لعدم إدراكهم خطورة عملهم الذي أصبح غريزة لهم، مركزة في طباعهم[1].

(١) وهبة الزحيلي، ألتفسير المنير، (دمشق: دار الفكر، ١٩٩١م)، ١/٨٤.

٥ ـ **الدقة الأدائية للتصوير القرآني**: تعددت وتنوعت ألوان التصوير القرآني، وشكلت عاملاً قوياً في تحريك المشاعر، وإعمال الفكر، وإثارة الخيال، محققة مقاصد القرآن بعمق وتنوع هذا التصوير. يقول سيد قطب عن مكانة التصوير القرآني ومظاهره: «إن التصوير هو القاعدة الأساسية في القرآن، وإن التخييل والتجسيم هما الظاهرتان البارزتان في هذا التصوير»[1].

ومن مظاهر هذا التخييل والتجسيم ما نجده في قوله تعالى مصوراً به شجرة الزقوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (الصافات: ٦٥) ولدى تأمل هذه الآية يتبادر للذهن تساؤل: كيف يرسم الخيال البشري لشجرة الزقوم صورة للقبح يقيس بها على الأصل، وهو لم ير شجرة الزقوم، كما لم يشاهد رأس الشيطان؟! ثم كيف يشبه مجهول بمجهول والصورة وظيفتها تفسير المجهول بمعلوم؟!

هنا تتجسد دقة التصوير القرآني بتوسيع دائرة الصورة حتى يذهب خيال الإنسان كل مذهب في تمثل صورة

(١) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط٧، (بيروت، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٢م)، ص٨٧.

للقبح؟ لاسيما إذا كان الطرف الأول من الصورة مفرداً (شجرة الزقوم) والطرف الآخر متعدداً (رؤوس الشياطين) فيكون مؤدى هذا التخييل صورة متناهية في القبح دون تحديد لهذا القبح، مما يُصعِّد طاقة الصورة التأثيرية، ووظيفتها الدلالية.

obeikandl.com